

الطريقة الجزئية في التعليم بين علم النفس والتربية الاجتماعية
- مقدمة ابن خلدون أنموذجاً -

أ.د. عبد القادر سلامي

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات

جامعة تلمسان-الجزائر

skaderaminaanes@gmail.com

*مقدمة:

إنّ التّحصيل التربوي تحكمه عدّة عوامل نفسية وأخرى اجتماعية، ترجع إلى طبيعة الفروق الفردية أو إلى طبيعة التّوجيه الذي قد يحيي الرّغبة في الدّراسة أو التّفور منها، وكلّ هذا قد يؤثّر على نوعيّة التّحصيل سلّبا أو إيجابا، وهو ما تتبّه إليه ابن خلدون، فعقد لذلك فصلاً في مقدمته بعنوان (في أنّ كثرة التّأليف في العلوم عائقة عن التّحصيل)، جاء فيه؛ وهو ما تسعى المداخلة التالية إلى عرض تفاصيله.

1- ترجمة ابن خلدون:

هو عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن خلدون نسبة إلى جدّه خالد المعروف بخلدون، ويكنّى أباً زيد، ويلقب بوليّ الدّين لتولّيه قضاء المالكية بمصر و ينتهي نسبه إلى وائل ابن حجر من عرب اليمن. ولد ابن خلدون بتونس سنة 732هـ، ولن أجداده أندلسيون من إشبيلية. درس على عدد كبير من العلماء الأندلسيين الذين هاجروا من تونس و استقرّوا فيها فقرأ عليهم القرآن الكريم بالقراءات السبع إفراداً وجمعاً فيأحدى وعشرين ختمة ثمّ جمعها في ختمة واحدة وعرض بعد ذلك قصيدتي أبي القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الرعيني الشّاطبي (ت 590هـ) اللّامية والرّائية وكتاب التّقصي لأحاديث الموطأ لأبن عبد البر (ت 463هـ) ودارسهم كتباً عدّة نحو كتاب

التسهيل لأبن مالك(ت 682هـ) ومختصر ابن الحاجب(ت 646هـ) في الفقه، ثمّ تعلّم صناعة العربية، وحفظ كتاب الأشعار السنّة والحماسة ليوסף بن سليمان الشننمري المعروف بالأعلم (ت 476هـ) وطائفة من شعر المتنبي ومن أشعار كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني(ت 356هـ) وقرأ مختصر المدوّنة وكتاب المالكية، كما أخذ النحو والفقه عن إمام المحدثين والنّحاة بالمغرب أبو محمد بن عبد المهيمن الحضرمي (ت 740هـ) وأخذ العلوم العقلية من منطق وحكمة عن عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي(ت 757هـ). إلاّ أنه لما بلغ ابن خلدون) السابعة من عمره أي في سنة 749هـ انتشر وباء الطّاعون الذي ذهب بالأعيان والصدور وجميع المشيخة، وأبويه، الأمر الذي حال دون متابعته دروسه.

وقد نشأ خلدون مكبّاً على تحصيل العلم حريصاً على اقتناء الفضائل متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته. وفي شبابه انغمر ابن خلدون في حياة سياسية حافلة في بلاط الحفصيين في تونس، أو في بني عبد الواد في تلمسان و اجتذبه بلاط بني مرين في فاس للخدمة فيه، وهناك اتصل ابن خلدون بالوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب(ت 776هـ) حينما نفي مع سلطانه إلى المغرب، وتوطّدت بينهما صداقة متينة بينهما امتدّت إلى حين وفاته ابن الخطيب في محبسه؛ أثر بعدها ابن خلدون الاعتزال والانطواء، أربع سنوات(776هـ-780هـ) قضاها في قلعة بني سلامة أو قلعة توغزوت التي تقع على بعد خمسة كيلومترات من مدينة فرنده الحالية في ولاية تيارت غربي الجزائر، وبها مغارة كبيرة يظنّ أنّ ابن خلدون كتب مقدمته فيها.

من أشهر مصنفاته: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، و التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، وتلخيص محصل كتاب فخر الدين الرّازي (ت 606هـ) وتقييد المنطق، وهو كتاب في الحساب، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد(ت 595هـ) وشرح قصيدة البردة للبوصيري، وشرح أرجوزة في الفقه للسان الدين بن الخطيب. كما كانت له قصائد في السّلاطين تتراوح بين الجودة والرّداءة.(1)

2-التعريف بالمقدمة:

عالجت مقدمة ابن خلدون موضوعات متنوعة ضمن ستة أبواب، من حيث طال البابان الثالث والسادس عن غيرهما، فكان أن جاء:

الباب الأول : في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض.
والباب الثاني: في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية.
والباب الثالث: في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية.
والباب الرابع: في العمران الحضري والبلدان والأمصار.
والباب الخامس: في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه.
والباب السادس: في العلوم واكتسابها وتعلّمها.

وكان مسعى ابن خلدون من المقدمة وهي الجزء الأول من "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، هو أن يضع نفسه في فئة المؤرخين وأن يقفو أثر المسعودي (ت346هـ) مصححاً بعض ما وقع فيه من أخطاء، إنّه يصعب على المراجع أن يصنّفه ضمن المؤرخين، كونه أخذ في مقدمته من كلّ علم بطرف، فتحدّث عن كلّ ما يخصّ الإنسان من معنويات وماديات، داعماً ما ذهب إليه من آراء بشواهد من الذكر الحكيم و ديوان العرب الشعري.

ونظراً لمكانتها العلمية، فقد حظيت المقدمة منذ أن وقعت عليها الأنظار بعناية والمؤرخين وعلماء الاجتماع و الفلاسفة واللغويين عرباً ومستشرقين، كما طبعت عدّة مرّات بتحقيقات مختلفة.

3- المقدمة و التحصيل التربوي:

أ- التّحصيل في اللغة:

التّحصيل مشتقّ من الفعل حصل وهو: "الحاصل من كلّ شيء ما بقي وَثَبَتْ وذهب ما سواه، يكون من الحساب والأعمال ونحوها؛ حَصَلَ الشَّيْءُ يَحْصُلُ حُصُولًا. والتّحصيل: تمييز ما يحصل، والاسم الحصيلية، و الحَصَائِلُ: البقايا، الواحدة حصيلية. وقد حَصَلْتُ الشَّيْءَ تحصيلًا. وحاصل الشيء ومحصولُهُ: بقيتُهُ. قال الفراء (ت207هـ) في قوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾⁽²⁾ أي بَيَّنَّ؛ وقال غيره: مُيِّرَ، وقال بعضهم: جُمِعَ. وَتَحَصَّلَ الشَّيْءُ: تَجَمَّعَ وثبت. وَالْمَحْصُولُ: الحاصل، وهو أحد المصادر التي جاءت على مفعول كالمعقول والميسور والمعسور. وتحصيلُ الكلام: رَدُّهُ إلى محصُولِهِ.⁽³⁾

ب-التحصيل بين علمي التربية والنفس:

وعن مدلول التّحصيل من وجهة النظر اصطلاحية ، فهو: "مقدار المعرفة أو المهارة التي حصل عليها الفرد نتيجة التّدريب والمرور بخبرات سابقة."⁽⁴⁾

على أنّ من التربويين من يرى فيه تلك: المعرفة أو المهارة المقتبسة، التي هي خلاف القدرة؛ وذلك على اعتبار أنّ الإنجاز أمر فعلي وليس إمكانية.⁽⁵⁾

أمّا بعض علماء النفس، فيرى فيه إنجازا يكون في العادة تعليميا ويعني بلوغ مستوى معين من الكفاءة في الدّراسة، سواء في المدرسة أو الجامعة وتحدّد ذلك اختبارات التّحصيل المقتنّة أو تقديرات المدرّسين أو الاثنان معا.⁽⁶⁾

كما أنّ التّحصيل الدّراسي هو درجة الاكتساب التي يحقّقها فرد أو مستوى النّجاح الذي يحرزه أو يصل إليه في مادّة دراسية أو مجال تعليمي أو تدريبي معيّن. فالاختبارات التي يطبقها الأستاذ على طلابه على مدار العام الدّراسي يفترض أنّها تقيس التّحصيل الدّراسي أو الأكاديمي. والهدف من تصميم هذه الاختبارات التّحصيلية هو قياس مدى استيعاب الطّلاب لبعض المعارف والمفاهيم والمهارات المتعلّقة بالمادّة الدّراسية في وقت معيّن أو في نهاية مدة تعليمية معيّنّة.⁽⁷⁾

ويعدّ التحصيل الدراسي الهدف الأساس في تشكيل عمليّة التعلّم وتحديدّها، والتّجّاح فيه عامل ذو أثر كبير في تكوين الشّخصية إذ يتبعه عادة الثقة بالنفس والارتياح؛ أما الرسوب والفشل المتكرّر، فيتبعه عادة تأنيب النفس ونقد من الآخرين. وكلّ هذه العوامل النفسيّة ستؤثّر بشكل حاسم على عملية التحصيل.

د- التحصيل في ضوء الطريقة الجزئية من منظور ابن خلدون:

لئن أثبتت التجارب أن الطّريقة الكلية أفضل من الطريقة الجزئية؛ لأنه كلّما كان الموضوع المراد تعلمه متسلسلا تسلسلا منطقيا أو طبيعيا كلما سهل تعلمه، فالموضوع الذي يكوّن وحدة طبيعية يكون أسهل في تعلمه بالطريقة الكلية عن الموضوعات المكونة من أجزاء لا رابطة بينها،⁽⁸⁾ إلا أنّ اتباع الطّريقة الجزئية في التحصيل والتبليغ يعدّ من أسبب الأساليب التربوية قدرة على التواصل بين الأجيال في رأي ابن خلدون. فقد عقد لذلك فصلاً في مقدمته بعنوان (في أنّ كثرة التّأليف في العلوم عائقة عن التحصيل)، جاء فيه: "اعلم أنّهُ ممّا أضرّ بالنّاس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التّأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدّد طُرُقها، ثمّ مطالبة المتعلّم والتلميذ باستحضار ذلك. وحينئذٍ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلّم إلى حفظها كلّها أو أكثرها ومراعاة طُرُقها. ولا يفي عمره بما كتبت في صناعة واحدة إذا تجرّد لها، فيقع القصور ولا بدّ دون رتبة التحصيل... وثمّ إنّهُ يُحتاج إلى تمييز (طرق القدماء) وطرق المتأخّرين عنهم، والإحاطة بذلك كلّهُ، ... والمتعلّم مُطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها، والعمر ينقضي في واحد منها. ولو اقتصر المعلّمون بالمنعّمين على المسائل المذهبية فقط، لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التّعليم سهلاً ومأخذه قريباً؛ ولكنّه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه، فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها. ويمثّل أيضاً علم العزبيّة من كتاب سيبويه (ت180هـ)، وجميع ما كتبت عليه، وطرق البصريين والكوفيّين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم، وطرق المتقدّمين والمتأخّرين مثل ابن الحاجب (ت646هـ) وابن مالك (ت682هـ) وجميع ما كتبت في ذلك. وكيف يُطالب به المتعلّم، وينقضي عمره دونهُ، ولا يطمَع أحدٌ في الغاية منه إلا في القليل النّادر؟! " (9)

فلعلّ ابن خلدون قصد بذلك التّدريب الموزّع الذي يخضع لفترات متباعدة تتخللها فترات من الرّاحة. أما التّدريب المركّز، فيتم في وقت واحد وفي دورة واحدة، وقد وجد أنه يؤدي إلى التعب والملل، ويكون عرضة للنسيان؛ وذلك لأن فترات الراحة التي تتخلل التّدريب الموزّع تؤدي إلى تثبيت ما يتعلمه الفرد. (10)

على أنّ التّحصيل التربوي عنده تحكمه عدّة عوامل نفسية وأخرى اجتماعية، ترجع إلى طبيعة الفروق الفردية أو إلى طبيعة التّوجيه الذي قد يحيي الرّغبة في الدّراسة أو النّفور منها، وكلّ هذا قد يؤثر على نوعيّة التّحصيل سلبيًا أو إيجابًا. (11)

وهو ما انتهى إليه الأسلاف قبله ومنهم أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت 463هـ) الذي تنهى إليه قول ابن عباس (ت 68هـ)، رضي الله عنه،: العلم كثيرٌ، ولن تعيه قلوبكم، ولكن ابتغوا أحسنه... (12)

ويذكر في هذا الصدد " أنّ أبا زيد الأنصاري (ت 215هـ) رأى رجلاً حسن العلم، كثير الرواية، جيّد الحفظ لمُلاح الأخبار، لا يتمثّل إلاّ بحسن، ولا يستشهد إلاّ بجيّد، فقال: كأن والله علمه من ظهور الدفاتر - قال المعافى بن زكريا الجريبي (ت 390هـ): يريد به ظهور الدفاتر لا يكتب عليها إلاّ الأحسن". (13)

وهو ما حدا بالخليفة المأمون (ت 219هـ) أن يوصي بعض بنيهِ بقوله: "اكتُب أحسن ما تسمع، واحفظ أحسن ما تكتب، وحدّث بأحسن ما تحفظ." (14)

الخاتمة:

نظراً إلى أهمية التّحصيل والمصطلح في العملية التربوية والتواصل بين الباحث والمتلقّي، سعينا في هذه المداخلة إلى استعراض نموذجين يمثّلان غيضاً من فيض، عمدنا إلى رسم ملامح منهجية لتّحصيل العلوم بما يعرض لتلك اللّمحات الإشرافية التي حفلت بها مقدمة ابن خلدون. ولئن جاء ذلك عَرَضاً في المقدمة كونه لا يمثّل الهدف الأساس من وراء تأليفها إلاّ أنّه، في رأينا، يمثّل جسر تواصل مع إنجاز ينتظر الإنصاف والإقرار؛. على نحو اتّخذته بعض دوائر علن النفس والتربية الاجتماعية الحديثة تكأة في التّظهير والتطبيق.

الحواشي:

(1) ينظر: ابن خلدون، التعريف بابن خلدون:3-365 و المقري،نفتح الطيب:8/277-286.

(2) العاديات:10.

(3) ابن منظور،لسان العرب:11/153، مادة (حصل).

(4) عبد الرحمن العيسوي،علم النفس بين النظرية والتطبيق:166.

(5) فاخر عاقل،معجم علم النفس:4-16.

(6) عبد المنعم الحفني ،موسوعة علم النفس والتحليل النفسي:5.

(7)صلاح الدين محمود علام،القياس والتقويم التربوي والنفسي:305-306.

(8) عبد الرحمن العيسوي،علم النفس بين النظرية والتطبيق:198-199.

(9) ابن خلدون،المقدمة :527-528.

(10) عبد الرحمن العيسوي،علم النفس بين النظرية والتطبيق:197-198.

(11) المرجع نفسه: 198.

(12) الخطيب البغدادي، تقييد العلم:141.

(13) المرجع نفسه:141.

(14) المرجع نفسه:141.

المصادر والمراجع:

**المصحف الشريف.

*ابن خلدون،عبد الرحمن محمد :

- التعريف بابن خلدون، ورحلته غرباً وشرقاً ،دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري،

1979هـ.

- مقدمة ابن خلدون، ط2، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، 1416هـ-1996م.

* ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان، 1414هـ-1994م.

* الحفني، عبد المنعم: موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، ط2، مكتبة مدبولي، 1979م.

* الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت: تقييد العلم، تحقيق يوسف العشي، ط3، دار الوعي، حلب، 1395هـ، 1988م.

* عاقل، فاخر: معجم علم النفس، دار العلم للملايين، بيروت، 1977م.

* علام، صلاح الدين محمود: القياس والتقويم التربوي والنفسي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة،

1420هـ - 2000 م.

* العيسوي، عبد الرحمن: علم النفس بين النظرية والتطبيق، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1984م.

* المقرئ، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت، 1388هـ.